

أثر المرجعية في مواجهة التحديات الاجنبية خلال العصور العباسية

المأخرة

أ. حمدية صالح الجبوري

جامعة القادسية، كلية التربية، قسم التاريخ

المقدمة:

فمن نافلة ان موضوع المرجعية من المواضيع الشائعة التي اشبعت من قبل العديد من الباحثين، إذ وجدت ان هناك ثمة تركيز عام على المفهوم الديني فقط للمرجعية والابتعاد عن مفهومها السياسي، على الرغم من الترابط المتين بين مفهوم المرجعية الديني والسياسي، إذ ان كثير من الناس يرى انه لا يوجد تداخل ما بين الدين والسياسة لاعتقادهم ان الدين شيء مقدس والسياسة ما هي الا كذب واحتيال، فحاولوا ابعاد الدين عن السياسة وعن الاقتصاد وعن العلوم الاخرى، على اعتبار ان الدين مسألة فردية تتعلق بين العبد وربه، وعلى ما يبدو ان هذه النظرية السلبية متأتية من الاسلوب المادي البحت الذي استخدمه رجال الدين النصارى واصدارهم لما يسمى بصكوك الغفران وغيرها من الالاعيب المبتدعة، وكذلك سوء العلاقة بين رجال العلم ورجال الكنيسة، فحاول المستعمرون استغلال ذلك واحالة السلبات الى الدين فابتدعوا ما يسمى "الدين افيون الشعوب" وتدرجيا عممت المفردة لتشمل الدين الاسلامي فاستنفر الناس من تدخل الدين بالسياسة، الا انه في واقع الحال فان الدين الاسلامي يختلف عن باقي الديانات وكذلك رجاله يختلفون عن رجال الديانات الاخرى، اذ كانوا هم وسيلة الاتصال بين الائمة المعصومين(عليهم السلام) والناس وكانوا من بعدهم ائمة حق حري بنا الاقتداء بهم، ولعل التضحيات

التي قدمها رجال الدين خلال التاريخ اكبر دليل على ما نقول، ولذلك حاولت قدر الامكان توضيح ولو مبسط لتبيان ذلك للقارئ الكريم .

لذا اعتمدت على مجموعة مصادر منها (رجال الكشي) للكشي (ت: ٣٤٠هـ)، (البداية والنهاية) لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، فضلا عن المصادر الاخرى، والتي نترك المجال للقارئ الكريم الاطلاع عليها .

الفصل الاول: المرجعية الدينية في الواقع السياسي خلال العصور العباسية المتأخرة

المبحث الاول: الاصول الاولى للمرجعية

مفهوم المرجعية

مصطلح تقليد او مرجع غير موجودين في أي نص شرعي، وانما هما مستحدثان وليس لهما اساس من حيث كونهما تعبيران يدلان على مؤسسة تقليد هي مؤسسة ومرجعية، هي مرجعية التقليد، يعني مؤسسة من حيث كونهما اثنين لمؤسسة ليس لهما في الاخبار والاثار فضلا عن الكتاب الكريم عينا ولا اثر، وان هذا الفهم كان من قبل الشيخ محمد مهدي شمس الدين الذي لم ينفرد به وحده^١، بل هناك العديد ممن شاركوه هذا الرأي امثال السيد محمود الهاشمي الشاهرودي الذي قال^٢ ان: (مسألة المرجعية مسألة مهمة جدا يجدر بحثها والوقوف عندها والتأمل فيها خصوصا ان مصطلح المرجعية لم يرد في آية ولا رواية، بل هي مما انتهى اليه الفقهاء واكتشفوها من خلال روح الفقه وجوهره والذوق الفقهي، وقالوا لا يمكن ان يكون الشيعي من دون مرجع، ولا بد من تصدي المرجع لأموارهم فاحرزوا المرجعية واسسوها واعترفوا بها عبر التاريخ، ثم تحولت الى امر مسلم به تحت عنوان المرجعية لدى الشيعة)^٣.

ويضيف الشيخ شمس الدين قائلًا: (كل ما هو موجود في مادة قلد موجود في خبر ضعيف لا قيمة له من الناحية الاستنباطية اطلاقًا، وهو المرسل الشهير عن ابي الحسن، عن ابي محمد الحسن العسكري (ع) ومتداول على السنة الناس: "من كان من الفقهاء صائنا لدينه مخالفا لهواه، مطيعا لأمر مولاه، فللعوام ان يقلدوه"^٤. فمادة قلد موجودة فقط بهذا النص، ولكن لا نعتمد عليها اطلاقًا، ومقلد ومرجع لا اساس لهما، الموجود في الفكر الاسلامي والنص الاسلامي مصطلح الفقيه، والموجود في الكتاب والسنة مصطلح فقيه، في الكتاب (ليتفقها في الدين)^٥. وفي السنة في جملة من النصوص اغلبها او كثير منها ضعيف ايضا، او ليس صحيحا في الدرجة المطلوبة، ولكنه موجود بدليل صدورها عن الامام^٦. بعد ذلك لعله بسبب التأثير ببعض الاوساط الفكرية نشأ مفهوم التقليد، الموجود في الشرع ليس التقليد وانما الموجود هو الاتباع او هو التعلق او التفقه^٧. فالفقيه لا يتمتع باي قداسة على الاطلاق، وليس مؤهلا لأن يكون متبوعا على الاطلاق، اذا مفهوم التقليد هو مفهوم دخيل، فالفقيه هو من يعرف احكام الدين وهو مفهوم واسع يمكن للجاهل بمعنى الاجتهاد ان يكون متعلما في احكام الدين، ويمكن للفقيه العالم المستنبط ان يكون متعلما في احكام الدين^٨. اذا فمصطلح مرجعية لا يوجد في النصوص الشرعية ولا في نصوص السنة الشريفة بجميع طرقها ومدارسها، ولا في الكتاب الكريم، الموجود في الفكر الاسلامي هو مصطلح فقيه فقط^٩. من خلال ما ذكر يفهم ان مصطلح المرجعية مصطلح حديث يعني من الناحية التنظيمية التكوين الطبيعي لكل مجتمع، اذ ان لكل مجتمع له مرجعيات سواء كانت في التنظيم السياسي او الاقتصادي او الديني او غيره^{١٠}.

إذن المرجعية احد مظاهر انتظام المجتمع، وهذا من الضرورات التنظيمية للمجتمع ان تكون هناك مرجعيات بهذا المعيار^{١١}، وفي الحقل الديني المحض، النبي (صلى الله عليه واله وسلم) مرجع، الامام المعصوم مرجع، وكيل النبي او الامام في شأن مالي او تجاري مرجع، واذا كان وكيلاً او ممثلاً في التبليغ فهو مرجع في الدين^{١٢}.

دور المرجعية في مواجهة الاعتداءات الاجنبية

مواجهة الاعتداء الاجنبي امتداد لموقف مبدئي عام اصر عليه ائمة اهل البيت (عليهم السلام) في سلوكهم وتعاليمهم يقضي بتناسي الخلاف بين المسلمين عند تعرض الاسلام للخطر، والتوجه للعدو المشترك، حفظا لكيان الاسلام العام ودفاعاً عن بيضته، لأن الاسلام قبل الايمان، ولا يعرف الايمان ولا يصل له الانسان الا بعد معرفة الاسلام والوصول اليه.

وبدأ ذلك امير المؤمنين(ع) حينما جانب الظالمين واعتزلهم ورفض الدخول في امرهم ولم يبايع، ولما تعرض الاسلام للخطر، اضطر للبيعة حفاظاً عليه فقال (ع): (فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون الى محق دين محمد(صلى الله عليه واله وسلم) فخشيت ان لم انصر الاسلام واهله ان ارى فيه ثلماً او هدماً تكون المصيبة به علي اعظم من فوت ولايتكم، التي هي متاع ايام قلائل، ويزول منها ما كان كما يزول السراب او كما يتقشع السحاب، فنهضت في تلك الاحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمان الدين وتنهه)^{١٣}.

اما الأئمة (عليهم السلام) من بعده فهم في الوقت الذي منعوا فيه من الجهاد مع سلاطين الجور، لعدم حفظهم الميزان الشرعي في الجهاد، ولأن الجهاد معهم دعماً لهم، امروا بالقتال دفاعاً عن بيضة الاسلام.

وقد وردت العديد من الاحاديث يختص بهذا الجانب منها: ما ورد عن الامام الرضا(ع) قوله: (يرباط ولا يقاتل ،وان خاف على بيضة الاسلام والمسلمين قاتل ،فيكون قتاله لنفسه ليس للسلطان ،لأن في دروس الاسلام دروس ذكر محمد (صلى الله عليه واله وسلم).

وفي حديث عن الامام الصادق (ع) قوله:(على المسلم ان يمنع نفسه ويقاتل الكفار عن حكم الجور وسنتهم فلا يحل له ذلك) ١٤.

وقد جرى مراجعنا العظام وعلماؤنا الاعلام على ذلك قياما بالواجب وتبعا لأئمتنا (عليهم السلام) وجريا على تعاليمهم .

وقد كلفهم القيام بهذا الواجب شططا، فهم في الوقت الذي يتجنبون السلطة الظالمة ويشجبونها ،في الوقت الذي تقف منهم تلك السلطات ومن المؤمنين الذين يرجعون اليهم ويستترشدون بإرشادهم اشد المواقف ظلما وعدوانا وتجاهلا وامتهانا ،نراهم مضطرين بحكم الواجب الملقى على عواتقهم الى الوقوف مع تلك السلطات ودعمها في جهاد العدو الكافر، فأن نجحوا لم يشكروا ،وان فشلوا تحملوا تبعية الفشل ،وربما انتصر العدو فشفى منهم غيظه ١٥.

وقد كان لرجال الدين الدور الكبير عبر مختلف العصور في مواجهة الاخطار المحدقة بالأمة الاسلامية ،ولعل الخطرين الصليبي والمغولي يأتي في مقدمة تلك المخاطر، فكان الجهاد هو الترجمة الفعلية للخطب الحماسية التي القاها رجال الدين والتي اججت الروح القتالية لدى المسلمين .

وعلى هذا الاساس كانت هناك العديد من الحملات العدائية التي كان للفقهاء ورجال الدين دور كبير في التصدي لها ،منها :

اولا: الحملات الصليبية

أ. الحملات الصليبية وموقف الكنيسة منها :

لقد تعاقبت على المشرق الاسلامي العديد من الحملات الصليبية كانت تتوالى عليه بين الحين والآخر طمعا في مغنم جديدة ، او رغبة في تحقيق ما عجزت عنه الحملات الاخرى ، او استجابة لتحديات ومخاطر برزت من جانب المسلمين انفسهم^{١٦} ، وقد كان للروح الحربية في الكنيسة الدور الفعال في قيام تلك الحملات ، تلك الروح التي قامت في اول الامر على المودة والمحبة والاخاء ، وحب السلام ، ولكنها لم تلبث ان اصبحت مصدرا لحروب دموية استمرت عدة قرون . وذلك يرجع إلى دخول عناصر المتبربرة في الدين المسيحي واحتفاظها بنزعتها الحربية التي درجت عليها قبل اعتناقها هذا الدين ، والى رغبة الكنيسة في بسط نفوذها على الشرق كما فعل الاسلام من قبل وتأسيس مستعمرات لاتينية فيه ، ورغبة الكنيسة الغربية في السيطرة على جميع العالم المسيحي ليكون تحت سلطة حكومة دينية واحدة يرأسها البابا^{١٧} .

وقد تمكنت الحملة الصليبية الاولى من انشاء مملكة وثلاث امارات كانت اولها في الرها في الجزيرة الفراتية ، ثانيها في انطاكية على البحر المتوسط ، وثالثها في طرابلس ، اما المملكة فكانت بيت المقدس .

وانطلقت الحملة الصليبية الثانية بعد حوالي نصف القرن ، لكي ما تلبث ان تعقبها حملة ثالثة بعد مرور عقود ثلاثة فحسب ، ومن ثم راحت الحملات التالية تتردى الواحدة تلو الاخرى^{١٨} .

ب. موقف رجال الدين المسلمين من الحملات الصليبية

لقد كانت الحروب الصليبية حلقة من سلسلة طويلة في صراع الاسلام ضد خصومه ، فالغزو الصليبي ليس امرا جديدا ، ولا ظاهرة غريبة او استثنائية ، ولهذا برز

دور رجال الدين من خلال الخطب الحماسية والحث على الجهاد ، فكانت المقاومة الاسلامية لهذا الغزو تعبيرا عن استمرار تيار العقيدة في نفوس المسلمين ، لقد كان لرجال الدين الدور المميز في صنع مجاهدين على درجة كبيرة من الفاعلية والقدرة ، وقد انتشر هؤلاء في كل الجبهات وقاموا بمقاومة الغزاة في كل الفترات، وعلى مدى قرنين من الزمن لم يضعفوا او يستكينوا او يضعوا السلاح.

اذن فالجهاد (ماض- كما يقول الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) منذ بعثني الله الى ان يقاتل آخر امتي الدجال)١٩.

اذ تسبب سقوط مدينة بيت المقدس بما لها من مكانة في نفوس المسلمين؛ وتخاذل الحكام إزاء العدوان الصليبي في سريان موجات عاصفة من الغضب الشعبي الذي تبلور في رأي عام ضاغط؛ غذاه العلماء والفقهاء من المراجع العظام بخطبهم الملتهبة وكتبهم ورسائلهم؛ التي أفاضوا فيها في ذكر فضائل بيت المقدس ومكانته؛ وفضل الجهاد في سبيل الله٢٠.

وقد أسهم العلماء بما لهم من نفوذ روحي كبير في تحريك قوة العامة بما لها من تأثير في الصراع، وكانوا الأسبق إلى اكتشاف قدراتها وخطرها والتعويل عليها.

ثانيا: التأثير الاسلامي على المغول

يعتبر الغزو المغولي من الاهوال العظيمة التي واجهتها الامة الاسلامية، واذا كان الصليبيون قد اعتنقوا الديانة النصرانية ،فإن الشعب المغولي قد اعتنق عبادة الكواكب والرضوخ لها كمعتقد ديني ، فكانوا يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحزمون شيئا ،فكانوا يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير.

اما عن ديانتهم القديمة فلم تكن بأفضل من تلك، إذ على الرغم من اعترافهم باله عظيم قادر لا يؤدون الصلاة اليه، ولا يلقون إليه بالمودة، ويعبدون عددا من الالهة المنحطة، وبخاصة تلك الحيوانات الشريرة التي كانوا يقدمون اليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم، كما كانوا يعبدون ارواح اجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة اعقابهم، وبذلك يتبين ان ديانتهم لم تكن معدودة ضمن تلك الاديان التي تستطيع ان تقاوم جهود الاديان الكثيرة الاتباع والانصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الاقناع وسد حاجات العقل، وذات الهيئات المنظمة للمعلمين الدينيين^{٢١}.

وبذلك يتبين لنا كيف يمكن ان يعامل المغول رجال الدين المسلمين، فمما قيل ان الحاكم المغولي كيوك (٦٤٤-٦٤٦هـ/١٢٤٦-١٢٤٨م) قد استقدم احد الائمة بتأثير بعض الطوائف المحيطة به من بوذييين ونصارى- ليناظروه وقد كان ذلك الامام هو نور الدين الخوارزمي الذي اشتهر بالعلم والورع بين المسلمين، وقد طلبوا منه اثبات صحة دعوة محمد (صلى الله عليه واله -وسلم) مع موازنته بسلوك غيره من الرسل والا كان مصيره القتل إن هو اعите الحجّة، ولما كانت ادلة تلك الطوائف ضعيفة وخالية من وسائل الإقناع؛ نفذوا ايديهم من تلك المساجلة بالبراهين والحجج ولجئوا إلى طرق العسف، وسألوا كيوك ان يسأل هذا الإمام ان يسجد سجدتين وفق الاحكام الاسلامية والتعاليم المحمدية حتى تتبين امامهم وامام الخان حركات عبادتهم، فأمر كيوك ذلك الإمام ومن معه بالصلاة، فخرؤا على الارض سجدا، فقام بعض الكفار الذين دعاهم كيوك بإهانتهم واخذوا يضربون الارض برؤوسهم، كما اقترفوا معهم بعض الاعمال المخزية، على ان الامام

ومن معه لم يابوا لكل هذا واستمروا في صلاتهم من غير ان يقطعوها، ولما انتهى الامام من صلاته وسلم، رفع رأسه إلى السماء قائلاً: (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية) ٢٢.

ثم طلب كيوك ان يؤذن له بالانصراف وعاد إلى داره هو ومن معه ٢٣.

وعلى الرغم من تلك الهمجية والوحشية التي اتصف بها المغول و اكتساح جيوش جنكيز خان المراكز الاسلامية، وتحطيم كل مراكز الحضارة ومعالم الثقافة التي تركت القصور والحدائق خرابا واطلالا، وبعد ان كان جيشهم مئات الألوف، سكنوا في بلاد المسلمين وتكاثروا، ولم يرجع منهم إلى موطنهم الأصلي إلا القليل ٢٤، وقد اعترفوا بأن تلك كانت ظاهرة فريدة انخرمت بها قاعدة علماء الاجتماع في أن الأمة الغالبة هي التي تفرض ثقافتها على الأمة المغلوبة، ففي الغزو المغولي فرضت الأمة المغلوبة ثقافتها على المغول، فأسلموا، وكان السبب هو جهود مرجع من كبار علماء الشيعة، هو: محمد بن محمد بن الحسن المعروف بـ (خواجه نصير الدين الطوسي)، فقد واجه هذا المرجع الحكيم المد المغولي بحكمة وعمق، وعمل خطة كانت موفقة حققت إنجازات عظيمة ٢٥؛ حيث:

١- ركز عمله على قادة المغول ابتداءً من طاغيتهم الأكبر هولاكو إلى أبنائه وأحفاده ووزرائهم، وأجاد معهم العلاقة والأسلوب، فأثمرت جهوده بسرعة نسبية، فأسلم على يديه وأيدي تلاميذه أبناء هولاكو وكبار قادة جيشهم، وتغيرت نظرة المغول وشعورهم تجاه الإسلام وأمتة، وبعضهم حسن إسلامه، وكان أولهم إسلاماً أحمد بن هولاكو وإن كان هولاكو قد أسلم شكلياً.

٢- أقنع المغول أن لا يحكموا بلاد المسلمين مباشرة، بل أن ينصبوا حكّاما أكفاء من أهلها أو غيرهم ويطلقوا أيديهم، أما هم فلا يتدخلوا في الأمور الداخلية للبلاد.

٣- أقنع المغول بتبني سياسة الحرية المذهبية، وسياسة الإعمار، فكان ذلك هو برنامج الحكّام المنصوبين من قبل المغول، حتى ظهرت ثمّاره خاصّة في العراق، فشهد المؤرخون بأن نهضة ثقافية وإعمارية قامت أفضل ممّا كانت عليه في عهد الحكومة العباسية.

٤- اهتمّ بالبحث عن الكفاءات العلمية والإدارية والسياسية، في طول البلاد وعرضها، فقام بجذب تلك الكفاءات ورعايتها، وإطلاق يدها في العمل والإبداع. ونتيجة لذلك ظهر في مرصد مراغة وجامعتها، وجامعات المستنصرية والنظامية، والحلّة وغيرها من حواضر العلم، عشرات الأطباء والمهندسين والفلكيين، والعلماء من كل علم، فأثر بعمله ومؤلفاته حياة الأمة. وكان عمل هذا المرجع وتلاميذه عملا واسعا شمل المناطق التي احتلها المغول، وهي أغلب العالم الإسلامي، وكذلك كان عملا متنوعا، فيه البعد: العلمي، والاجتماعي، والسياسي، والإداري. وكان عملا عميقا أيضا، في: اختيار الطاقات، ووضع الخطط، وإقناع القادة بها، وتوعية الناس عليها.

وكان الجزء الأصعب في تلك الأعمال عطف أذهان ملوك المغول وقلوبهم من الوثنية إلى الإسلام، وتبديل تعطشهم للدماء والتدمير والسيطرة إلى حب الهدوء والتقوى وخدمة الناس. وذلك أمر لم يتمكن منه إلا المرجع الشيخ نصير الدين الطوسي، بما آتاه الله تعالى من شخصية جذابة حتى لأعدائه، ولذلك كانت المرجعية بمثابة قارب النجاة للأمة من سوء أفعال الحكّام وجهازهم، وأن اتهمه بأن

لهم يدا في غزو المغول هو من أكاذيب خصومه^{٢٦}، وأن نصير الدين الطوسي قد قام بدور المنقذ للإسلام والمسلمين من شر المغول، فاستطاع تحويل بعض قادة المغول من وحوش مدمرين مخزيين إلى مسلمين يتبنون سياسة الحرية المذهبية والحرية العامة، وسياسة الإعمار، وتشجيع العلم والعلماء. وقد حقق الحكم المغولي بتبنيه مذهب التشيع في مدة قصيرة ما عجز عنه حكم السلطة المترفة المتعصبة في قرون طويلة^{٢٧}.

وبمرور الوقت بدأ المغول بالتخلي عن بربريتهم الاولى حين وجدوا انفسهم جنبا إلى جنب مع هذه الشعوب ذات الحضارة الزاهية والاديان الراقية، فهدأت ثائرتهم وتركوا التخريب والتدمير وظهروا بمظهر التسامح مع اصحاب الديانات الاخرى. طبيعة العلاقة بين الطوسي وهولاكو:

يعد الطوسي من النماذج العلمية المتميزة التي قلما انجب نضيرها التاريخ، وقد كان لهذه الشخصية الدور الكبير ان لم نقل في صد الهجمات المغولية، فعلى الاقل في التخفيف منها بشكل كبير، اذ كان الطوسي اثناء الغزو المغولي لايزال سجين في احدى القلاع المسماة قلعة آلموت وبقي في أسره حتى أطلق سراحه أخيرا على يد المغول، وأكرمه اهالي الديلم لعلمه بعلم النجوم وصار في عداد وزرائهم، وحضر بين يدي هولاكو فحظي عنده بمعاملة خاصة^{٢٨}.

أثارت علاقة الطوسي بهولاكو جدلا ونقاشا حادين، فاعتبر البعض أنها كانت نتيجة لمراسلات حصلت بين هولاكو والطوسي، ورأى آخرون أنها كانت نتيجة طبيعية لسمعة الطوسي الفلسفية الجيدة، ولكن الواقع كان غير ذلك، حيث لم يكن هولاكو ممن يستسيغ الفلسفة، والراجح أنها كانت نتيجة اشتهار الطوسي في علم الفلك والنجوم والاختبارات، ولم يكن الطوسي الوحيد الذي أبقى

عليه، بل أبقى أيضا على رجلين آخرين هما موفق الدولة ورئيس الدولة وذلك لكونهما طبيبين^{٢٩}.

ومما يروى أن هولاء كان قد اصطحب الطوسي في حملته على بغداد عام (٦٦٥هـ/١٢٥٧م)، ما جعل الطوسي موضع انتقاد شديد من جانب المؤرخين، فشكك بعضهم في إسلامه، ووصل الأمر بأخرين منهم إلى حد اتهامه باعتناق الوثنية، في حين حمله فريق ثالث مسؤولية سفك الدماء في بغداد وانتهاك الحرمات والتنكيل بالإسلام والمسلمين، فضلا عن اتهامه بتهوين أمر قتل الخليفة المستعصم بالله.

بينما نجد أن فريقا آخر نظرا بإيجابية إلى هذا الاصطحاب، حيث يبين إن الطوسي انصرف وهو في بغداد إلى إنقاذ أكبر عدد ممكن من أرواح الناس، وخاصة الفلاسفة والعلماء والفلكيين، حيث تمكن أن ينتزع من هولاء أمرا يقضي: بأن يقف عند باب الحلبة ويؤمن للناس الخروج من هذا الباب، فأخذ الناس يخرجون جماعات كثيرة، هذا عدا تمكنه من إنقاذ الكتب النفيسة والآثار العلمية، حتى غدت هناك مكتبة علمية تحوي أكثر من أربعمئة ألف مجلد^{٣٠}.

أما عن دوافع الطوسي في خدمة هولاء ومرافقته إلى بغداد، إنما تعود، كما يشير بعض المؤرخين، إلى أن الطوسي تيقن من استحالة النصر العسكري على المغول بسبب الانحلال التام للعالم الإسلامي، نتيجة لما لحق به من ضعف، وإدراكا من الطوسي أن الطائفة الكبرى ستحل بالمسلمين إذا ما استطاع المغول الهيمنة فكريا عليهم تمهيدا للقضاء على الإسلام، فاستغل الطوسي حاجة هولاء إليه لخبرته في علم النجوم الرصد فأنقذ ما أمكن إنقاذه من التراث الإسلامي المهتدء بالزوال، وقد اعتمد المرجع الطوسي أسلوبا فريدا في رد الغزو المغولي والنهوض بالأمة

ثقافيا وعمرانيا ، هو أسلوب العمل بنفسه على أهم الأصعدة ومع أعلى مراكز القرار ، وفي نفس الوقت العثور على الطاقات القابلة للنموغ ، وتنميتها وإطلاقها في الأمة في كل المجالات^{٣١} .

كان الطوسي يركز نظره على الشخصيات النابغة ، فعندما عاد من زيارته للحلة سئل عما رأى فيها؟ فقال : رأيت خريتا ماهرا وعالما إذا جاهد فاق - يقصد المحقق الحلي- والعلامة الحلي الذي كان عمره يومذاك بضع عشرة سنة. وعندما وجد محمد الجويني وأولاده تبناهم ودعمهم عند هولاكو وحماهم من غضبه وبطشه ، حتى كانوا وزراء وحكام العراق لأكثر من عشرين سنة فأعادوا عمرانته بأحسن مما كان في زمن الخلافة العباسية^{٣٢}

وعندما رأى ابن الفوطي^{٣٣} غلاما بيد المغول خلصه منهم وعلمه ووظفه ، وعندما رأى المشايخ آل الحموني قوى موقعهم عند هولاكو وعند أولاده ، فكان إسلام شخصيات المغول على أيديهم .

وهكذا العديد العديد من الأطباء ، والمهندسين ، والفلكيين ، والسياسيين ، الذين اختارهم واعتنى بهم ، وفتح لهم أبواب العلم والعمل ، وقد ذكر له تلاميذ ومعتمدين عديدين في العلوم والمجالات المختلفة وروي أن قطب الدين الشيرازي محمود بن مسعود كان (من كبار تلامذة النصير الطوسي وكان مبعلا عند التتار وجيها متواضعا حليما)^{٣٤} .

مدى تأثير الطوسي على هولاكو وأولاده

قال الأستاذ الأزهري الشيخ عبد المتعال الصعيدي^{٣٥}:

(استطاع نصير الدين الطوسي أن يهزم بالعقل والعلم الدولة الطاغية الباغية ، وأن تنجح خطته في تحويل المغول من وثنيين إلى مسلمين).

وقال السيد الأمين^{٣٦} (استطاع بتأثيره على مزاج هولانكو أن يستحوذ تدريجياً على عقله ، وأن يروض شارب الدماء فيوجهه إلى إصلاح الأمور الاجتماعية والثقافية والفنية ، فأدى الأمر إلى أن يوفد هولانكو فخر الدين لقمان بن عبد الله المراغي إلى البلاد العربية وغيرها ليحث العلماء الذين فروا بأنفسهم من الحملة المغولية فلجأوا إلى اربيل والموصل والجزيرة والشام ويشوقهم إلى العودة ، وأن يدعو علماء تلك البلاد أيضاً إلى الإقامة في مراغة).

وذكر أيضاً^{٣٧} انه استطاع أن (يستغل الجبار الطاغية فيقيم تحت سمعه وبصره مكتبة الإسلام ويشيد مدرسة الإسلام ، ويقيم مجمع علماء الإسلام ، وانه سيستطيع بإخلاصه وإيمانه الذين لا حد لهما ويعقله الكبير وفكره المنظم وتدييره الحازم أن يشرب قلوب المغول الميل إلى الإسلام ثم اعتناق الإسلام).

فأعد لهذه المرحلة الحاسمة جماعات واعية تحسن التخطيط والتنفيذ ، كان في الطليعة منها آل الجويني الذين نشأوا على حب أهل البيت وما يبعثه هذا الحب من إخلاص وحمية ونضال وتفان في سبيل الإسلام، ثم في النهاية أسلم المغول على يدي تلاميذه، ونجح مخطط الطوسي نجاحه الاكبر.

اما عن دخول هولانكو في الاسلام فكان لذلك سببا ، إذ يروى الكتبي^{٣٨}: ان هولانكو عزم على زواج بنت ملك الكرج فأبت حتى يسلم ، فأقر بذلك وشهد الشهادتين وشهد عليه بذلك خواجه نصير: الدين الطوسي وفخر الدين المنجم ، فلما بلغها ذلك أجابت فحضر القاضي فخر الدين الخلاطي، وتوكل لها النصير الطوسي ولهولانكو الفخر المنجم ، وعقدوا العقد باسم ماما خاتون (...).

ويظهر من هذا النص التالي أن تأثير نصير الدين على هولانكو جعله يتقبل التلطف بالشهادتين حتى لو كان شكليا من أجل الزواج بامرأة .

وكان لهذا الاسلام تأثير كبير على المغول ، إذ لم تلبث مدة طويلة حتى دخل السلطان أحمد خان بن هولكو الاسلام، ثم تبعه بعد ذلك العديد من ملوكهم واتباعهم ودخلت فئات عديدة من المغول إلى الاسلام^{٣٩}.

ومهما يكن إسلام قادة المغول وجنودهم سطحيا مخلوطا برواسبهم الوثنية ، لكنه كان البداية حتى تحسن ويبقى العمل الأهم تليين أذهانهم وقلوبهم للإسلام، وهو ما قام به العالم نصير الدين الطوسي وتلاميذه الأفاضل خاصة آل الجويني والعلامة الحلي.

وعلى المدى البعيد انجب التاريخ العديد من تلامذة الطوسي ، وقد كان لأبنائه وذريته وتلامذته الدور الكبير عبر العصور اللاحقة على جميع الاصعدة وفي مختلف المجالات..

الخاتمة

بعد هذا الاستعراض البسيط لمفردة المرجعية وبيان مفهومها السياسي والبحث فيه ندرك جيدا ان هنالك مفاهيم اخرى للمرجعية لا تنحصر في الجانب السياسي او الديني وانما تتعداه الى مضامين اجتماعية واقتصادية وعلمية، ويمكن توظيفها في جميع الجوانب الخدمية للإنسان لاتساع مفهومها العام وعدم اقتصره على الجوانب الدينية فحسب ، وكذلك مقدره رجالات الدين على العطاء النفسي والعلمي والمهني لصفاء سرائرهم وشمولهم بالهداية الالهية .

ان هذا الدور الذي لعبته المرجعية كان له تأثير واضح جدا على المجتمع بشكل عام وعلى القادة السياسيين بشكل خاص ، ولهذا يمكن القول ان المرجعية حظيت بالمنزلة الاساسية، بل بالمنزلة الام في ثنايا المجتمعات الاسلامية لما ابدته من خدمات عديدة في جميع الميادين ، فكان بروز نخب دينية متميزة قد هيأ الارضية

المناسبة لحدوث تغيرات جذرية على البنى التحتية لداخل الإنسان المسلم بعد ان تعرض لكثير من التغيرات التي احدثتها الظروف السياسية والاقتصادية وغيرها ،فكان حري برجال الدين ان ينهضوا بحمل تلك الاعباء وتوضيح ما التبس على المجتمعات من تغيرات متنوعة .

قائمة هوامش البحث:

- ١ مجموعة باحثين ،آراء في المرجعية الشيعية ،ط. بيروت: دار الروضة للطباعة والنشر ،١٩٩٤، ص٥٧٤.
- ٢ الشاهروردي، محمود الهاشمي ،الدين والسياسة ،ط. بيروت ،دار الغدير للطباعة والنشر ،٢٠٠٣، ص٤٧.
- ٣ الحكيم ،محمد تقي ،الاصول العامة للفقهاء المقارن ،ط. مؤسسة آل البيت(عليهم السلام)،ط. مؤسسة آل البيت(عليهم السلام)، للطباعة والنشر،(د.ت)، ص٦٤٠.
- ٤ مجموعة باحثين ،آراء في المرجعية،ص٥٧٥.
- ٥ سورة التوبة آية (١٢٢).
- ٦ مجموعة باحثين، آراء في المرجعية،ص٥٧٥.
- ٧ الحسيني ،سليم، المعالم الجديدة للمرجعية الدينية،ط. بيروت: دار الملائك،٢٠٠٤، ص٩٨.
- ٨ العاملي ،مالك مصطفى وهي ،بحوث في ولاية الفقيه، ط .بيروت :الدار الاسلامية ،١٩٨٩، ص٣١.
- ٩ الحكيم ،الاصول العامة للفقهاء،ص٦٤٢.
- ١٠ المصدر نفسه،ص٦٤٣.
- ١١ الصدر ،محمد باقر، الاسلام يقود الحياة ،ط.بيروت، ١٩٩١، ص٨٤.
- ١٢ مجموعة باحثين، آراء في المرجعية،ص٥٧٧.
- ١٣ ابن ابي طالب ،علي (ت:٤٠ هـ)، نهج البلاغة ،شرح محمد عبده،ط.بغداد، ١٩٨٤، ص٥٤٧.
- ١٤ الحر العاملي ،وسائل الشيعة ،١١/١١٨.
- ١٥ الطباطبائي ،المرجعية الدينية، ص١٨٢.
- ١٦ خليل ،مدخل ،ص ص١٩٠-١٩١.
- ١٧ حسن ،ابراهيم حسن ،تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ،ط. القاهرة ،(د.ت)،٢٤٣/٤-٢٤٤.

- ١٨ خليل، مدخل، ص ١٩١.
- ١٩ المصدر نفسه، ص ١٠١.
- ٢٠ ينظر: قاسم، عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ط. دار المعارف، ٢٠٠٤، ص ص ١٣٤-١٣٥.
- ٢١ حسن، تاريخ الاسلام، ١٣٣٤.
- ٢٢ سورة الاعراف/ الآية (٢٠٥).
- ٢٣ حسن، تاريخ الاسلام، ١٥٣٤.
- ٢٤ ينظر: خليل، مدخل، ص ١٥٣.
- ٢٥ العاملي، علي الكوراني، كيف رد الشيعة غزو المغول، ط ١، بابل، ١٤٢٦ هـ، ص ٥.
- ٢٦ المصدر نفسه، ص ٥٩.
- ٢٧ ينظر: خليل، مدخل، ص ١٥٤.
- ٢٨ ينظر: الامين، اعيان الشيعة، ٢٢/٢٣٧.
- ٢٩ القمي، عباس (ت: ١٣٥٩ هـ)، الكنى والالقب، (د. ط.)، (د. ت.)، ١١/٣.
- ٣٠ الامين، حسن، الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ط. بيروت، ١٩٩٧، ص ٥١.
- ٣١ العاملي، كيف رد الشيعة، ص ٥٨.
- ٣٢ الامين، الإسماعيليون، ص ٤١.
- ٣٣ ابو الفضل كمال الدين عبد الرزاق بن احمد بن محمد ، ببغداد المولد ، وهو من ولد معن بن زائدة الشيباني ، مؤرخ واحد الفلاسفة ، اسر على يد التتار فخلصه نصير الدين الطوسي ، قرأ على الطوسي الحكمة والادب ، فأعجب به ، وياشر خزانه الرصد بمراغة زهاء عشرة اعوام ، وعاد إلى بغداد سنة ٦٧٩ هـ، فصار خازن كتب المستنصرية زمننا ، واقام مدة طويلة في تبريز ، وفي النهاية عاد إلى بغداد وبقي فيها إلى توفي فيها .الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ٣١٩/٢.
- ٣٤ العاملي، كيف رد الشيعة، ص ٥٩.
- ٣٥ الامين، الإسماعيليون، ص ٥٢.
- ٣٦ الامين، اعيان الشيعة، ٢٢/٢٣٨.
- ٣٧ المصدر نفسه، ٢٢/٢٣٨.
- ٣٨ الكتبي ، محمد بن شاکر (ت: ٧٦٤ هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط. اصفهان، د.ت، ٥٨/٢.
- ٣٩ العاملي، كيف رد الشيعة، ص ٦٧.
- قائمة المصادر الاولية:

- ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد(ت:٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ط٢، بيروت، ١٩٧٦.
- ابن تغري بردي ، ابو المحاسن الاتابكي(ت:٤٧٠هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط.القاهرة، ١٩٢٩.
- الحموي ،شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت:٦٢٦هـ)، تقديم: محمد بن عبد الرحمن المرعشلي، ط.بيروت، ٢٠٠٨.
- ابن خلكان، ابي العباس شمس الدين(ت:٦٨١هـ)، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق: احسان عباس، ط.بيروت، ١٩٩٦.
- الذهبي ،شمس الدين محمد بن احمد (ت:٧٤٨هـ) ،سير اعلام النبلاء ،تحقيق: ابراهيم الايباري ،وطه حسين، ط.القاهرة، (د.ت).
-، كتاب دول الاسلام، ط١، ط. حيدر آباد الدن: دائرة المعارف النظامية، ١٣٣٧هـ.
- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت:٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، ط .بيروت، ١٩٦٢.
- ابن ابي طالب ،علي (ت:٤٠هـ)، نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ط.بغداد، ١٩٨٤.
- الطبرسي، ابو علي الفضل بن الحسن (ت:٥٤٨هـ)، اعلام الوري بأعلام الهدى ،ط.بيروت، ١٣٩٩هـ.
- الطرابلسي ،علي بن خليل، معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الاحكام، ط١ القاهرة، ١٣٠٠هـ.

• الطوسي، أبي جعفر بن الحسن (ت: ٤٦٠هـ)، رجال الطوسي، تحقيق وتعليق وتقديم: محمد صادق آل بحر العلوم، ط ١، طهران، ١٣٨١هـ.

• الكتبي، محمد بن شاکر (ت: ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، حققه وضبطه وعلق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، ط. اصفهان، د.ت.

• ابن كثير، اسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ط. دار الحديث، (د.ت).

• الكشي، ابو عمر محمد بن عمر (ت: ٣٤٠هـ)، رجال الكشي، تحقيق: حسن مصطفىوي، ط. اصفهان، (د.ت).

• الكليني، ابو جعفر الرازي (ت: ٣٢٨هـ)، اصول الكافي، ط. ايران: مطبعة حيدري، ١٩٩٦،

• النجاشي، ابو العباس احمد بن علي (ت: ٤٥٠هـ)، رجال النجاشي، ط. بومباي، ١٣١٧هـ.

• النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت: ٧٣٣هـ)،، نهاية الأرب في فنون الادب، ط. القاهرة (د.ت).

• القلقشندي، ابي العباس احمد (ت: ٨٢١هـ)، نهاية الارب في معرفة انساب العرب، ط. القاهرة، ١٩٥٩.

قائمة المراجع الثانوية:

• الامين، حسن، الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ط. بيروت، ١٩٩٧.

• الامين، محسن، اعيان الشيعة، تحقيق: حسن الامين، ط. بيروت، ١٩٩٨.

• الحر العاملي، محمد بن حسن. وسائل الشيعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، (د.ط) (د.ت).

- حسن ،ابراهيم حسن ،تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ،ط القاهرة ،(د.ت).
- الحكيم ،محمد باقر،الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق،ط.قم،٢٠٠٢.
- الحكيم ،محمد تقي ،الاصول العامة للفقهاء المقارن ،ط. مؤسسة آل البيت(عليهم السلام)،ط. مؤسسة آل البيت(عليهم السلام)، للطباعة والنشر،(د.ت) .
- حلمي ،محمد ،مصر والشام والصليبيون ،ط.بيروت،١٩٩٨.
- خليل، عماد الدين ،مدخل إلى التاريخ الاسلامي،ط١،بيروت،٢٠٠٥.
- الزركلي ،خير الدين(ت:١٣٩٦هـ)، الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين،ط٣،بيروت،١٩٨٢
- سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، القاهرة :مكتبة الآداب ،د.ت.
- شكيل ،هادي الدجاني ،مؤسسة الدراسات الفلسطينية ،١٩٩٩.
- الشرقاوي ،عبد الرحمن ،أئمة الفقه التسعة ،(د.ط)،(د.ت).
- الصدر،محمد باقر،الاسلام يقود الحياة ،ط.بيروت،١٩٩١
- الطباطبائي ،محمد سعيد ،المرجعية الدينية وقضايا اخرى ،ط٤،دار الهلال ،٢٠٠٣.
- العاملي ،مالك مصطفى وهبي ،بحوث في ولاية الفقيه، ط .بيروت :الدار الاسلامية ،١٩٨٩.
- العاملي، علي الكوراني، كيف رد الشيعة غزو المغول،ط١،بابل،٤٢٦هـ

- غامدي، عبد الله بن سعيد، القاضي كمال الدين بن الشهرزوري حياته ودوره في الحياة العامة في اقليم الجزيرة والشام. ط. دار الثقافة للطباعة، ١٩٩٥.
- قاسم، عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ط. دار المعارف، ٢٠٠٤.
- القبانجي، صدر الدين، المذهب السياسي في الاسلام، ط٧، ايران، مطبعة زيتون، ١٤٢٩هـ.
- القمي، عباس(ت: ١٣٥٩هـ)، الكنى واللقاب، (د. ط.)، (د.ت).
- مجموعة باحثين، آراء في المرجعية الشيعية، ط. بيروت: دار الروضة للطباعة والنشر، ١٩٩٤.

Abstract

We are well aware that there are other concepts of reference that are not limited to the political or religious aspect, but rather extend to social, economic and scientific implications. They can be used in all aspects of the service of man to expand its general concept and not only on religious aspects, As well as the ability of men of religion to give psychological, scientific and professional purity of their beds and their inclusion in divine guidance.

This role played by the reference has had a very clear impact on the society in general and on political leaders in particular, so it can be said that the reference has received the basic status, but the status of mother in the folds of the Islamic communities

because of the services in many fields, the emergence of religious elites Has created the appropriate ground for radical changes in the infrastructure of the human rights of Muslims after he was exposed to many changes brought about by the political, economic and other conditions. It was free for the clerics to rise to carry these burdens and to clarify the differences that affect the societies.